

نظرة تحليلية مقارنة لأفكار ابن خلدون في

الجغرافية الصناعية

د. عباس عبيد حمادي

كلية المعلمين - جامعة بابل

المقدمة :

يعدُّ ابن خلدون^(١) (١٣٣٢م-١٤٠٦م) من أشهر مفكري العرب وفلاسفتهم في القرن الرابع عشر . أهتم بدراسة علم الاجتماع والتاريخ لهذا فقد عُرف عالمًا فيهما، إلا أنه لم يشتهر كجغرافي على الرغم من أن مقدمته غنية بالأفكار الجغرافية وفي معظم مجالاتها ، الطبيعية والسياسية والاقتصادية ، ومن خلال أفكاره ومفاهيمه المتعلقة بالجغرافية الصناعية ، وجد أنه جاء بأفكار ومفاهيم أصبحت الأساس للمفاهيم الحديثة ، وكانت بمثابة الجذور العميقة تقرعت عنها من المفاهيم الحديثة. فقد تطرق إلى مفهوم الصناعة وأهميتها وأصنافها ودور الحضارة في تقدمها ونموها وأهم الصناعات القائمة آنذاك . أن مشكلة البحث تتحدد بأن للعلماء العرب دوراً بارزاً في إرساء الأفكار والمفاهيم الأساسية للجغرافية الصناعية وأنهم كانوا السباقين في هذا المجال على الرغم من أن الصناعة الحديثة ظهرت بشكل أكثر وضوحاً خلال القرن الثامن عشر . وبهذا تتحدد فرضية البحث في أن لـعلماء العرب ذلك الدور من خلال ما تركوه لنا من فكر جغرافي في مجال الجغرافية الصناعية ومنهم العالم ابن خلدون ، وتأسيساً على ذلك فإن هدف البحث سوف يكون مكرساً لإلقاء الضوء على تلك الأفكار من خلال تحليل آراء وأفكار ابن خلدون . ولكي نتمكن من الأتيان بالمشكلة والتحقق من فرضيتنا وإنجاز هدف البحث ، كان لابد من اعتماد منهجية البحث نحل من خلالها أفكار ابن خلدون في الجغرافية الصناعية ومقارنتها بالأفكار الحديثة آخذين في الحسبان فارق الزمن والتطورات الحديثة للصناعة . وضمت المحاور الآتية :

- ١ - مفهوم الصناعة .
- ٢ - أصناف الصناعة .
- ٣ - انعمق الحضاري ودوره في نشوء الصناعة وتطورها .
- ٤ - نمو الصناعة .
- ٥ - آلية العرض والطلب ودورها في تحديد سوق الصناعة .

١ - مفهوم الصناعة عند أبين خلدون :

أن تحديد مفهوم الصناعة فيه شيء من الاختلاف بين الباحثين في مجال الجغرافية الصناعية ، وهذا يعود إلى التباين في وجهات النظر ، وأتجاهات الباحث وهدفه ومعرفته ، فضلاً عن التباين في المكان والزمان . إذ أن الكثير من العلوم تتناول موضوع الصناعة غير أن علم الجغرافية ينفرد بينها في مفهومه لها، إذ أن الجغرافية تركز في دراستها الصناعة على المقومات الطبيعية والبشرية ودورها في نشوء وتطور الصناعة .

أن لأبن خلدون رأياً في مفهوم الصناعة يتضح من خلال تأكيده أن الصناعة هي موهبة قائمة على الفطرة .. وأن لابد لها من العلم لكي يكون التفاعل بين الناحية الفكرية والعضلية على أكمل وجه فتأخذ الاتجاه الصحيح . كما استنتج أبين خلدون بأن صقل الموهبة من ناحية ، وتنميتها من خلال ما يضاف إليها من الخبرات الجديدة والمتطورة من ناحية أخرى . أمر ضروري للصناعة ، يقول : ((أعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري ويكون عملياً هو جسماني محسوس والأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته))^(١).

كما استنتج أبين خلدون بأن إتقان حرفة الصناعة يرتبط بما يتوافر لها من العلم والمعرفة من ناحية ، وبطبيعة المتعلم وموهبته في قدرته على إتقان حرفة الصناعة من ناحية أخرى . حيث يقول : ((فالملكة الحاصلة عن الخبر على قدر

جودة التعليم ومملكة المتعلم في الصناعة^(٣). كما تطرق أبن خلدون إلى طبيعة المواد الأولية المستخدمة في الصناعة ، ودور جبه وعمل الإنسان في تحويلها إلى أشياء أكثر نفعاً للإنسان ، وهذا يتضح من قوله : "فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ، ومتحول لأنه إن كان عملاً بنفسه مثر الصنائع فظاهر وأن كانت من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه والآ لم يحصل ولم يقع به انتفاع"^(٣) .

وفي هذا القول إشارة واضحة إلى قيمة العمل المنتج في الصناعة . وفيما يأتي عرض لمفهوم الصناعة عند أبن خلدون من خلال توضيحه لبعض الصناعات :

١ - صناعة الفلاحة (هذه الصناعة يمر بها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض نها وأزراعها وعلاج نباتها وتعيده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته ثم حصاد سنبه واستخراج حبه من غلافه)^(٤) .

٢ - صناعة الحياكة والخياطة (الأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وانحاماً في العرض لذلك النسيج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للاشمال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير النسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة)^(٥) .

أما حديثاً فيمكن أن نذكر المفاهيم الآتية للصناعة :

١ - الصناعة ، عملية يتم بها تحويل مادة من المواد الأولية من حالتها الأصلية إلى حالة أو صورة جديدة تصبح أكثر نفعاً وأشباعاً لحاجات الإنسان ورغباته .

٢ - الصناعة ، بأنها كل التفاعليات الإنتاجية التي تجري في معامل أو مؤسسات تستخدم صنوفاً من الآلات والمكانن .

٣ - عرف الأستاذ فلورنس الصناعة بسيارة بسيطة ، مجموعة من المنشآت الصناعية والمصانع^(٦) .

٤ - تعريف الأمم المتحدة للصناعة ، تحويل مواد غير عضوية أو مواد عضوية بعمليات ميكانيكية أو بعمليات كيميائية إلى منتجات أخرى سواء أنجزت بالآت ميكانيكية تحركها قدرة أو انجزت بالأيدي ، وسواء أحدث إنتاجها في مصنع أم في ورشة أم في بيت - وسواء بيعت لتاجر جملة أم بيعت لتاجر تجزئة^(٧) .

٥ - الصناعة ، بأنها تحويل مستمر بكميات كبيرة للمواد الأولية إلى منتجات يسهل نقلها^(٨) من خلال المقارنة بين مفهوم أين خلدون للصناعة وبين المفاهيم الحديثة لها تستطيع القول بأن أين خلدون قد أشار إلى الفكرة الأساسية للصناعة التي أكدت عليها المفاهيم الحديثة مع فرق الزمن والتطورات التي حصلت في العمليات الإنتاجية للصناعة . كما يلاحظ أن أين خلدون لم يشر إلى الصناعة كحرفة فقط . وإنما أكد على المقومات الأساسية والتي من شأنها أن تجعل الصناعة قائمة أو عكس ذلك ، كتأكيده ضرورة توافر المواد الأولية لتستمر الصناعة ، والمهارة اللازمة والمنفعة المتوقعة من ممارستها ، وهذا ما تؤكد المفاهيم الحديثة وما تسعى إليه الجغرافية الصناعية في اختيار المواقع الملائمة للصناعة التي تحقق كفاية اقتصادية وموقعية والتطورات اللاحقة وما يصاحبها من تباينات مكانية في تركيز وطبيعة الصناعة ، ولو أن أين خلدون لم يشر إلى الطبيعة الجغرافية مباشرة إلا أنه يمكن استنتاج ذلك من ما تطرق إليه من تغيرات في مفهوم الصناعة .

٣ - أصناف الصناعة :

توجد في الوقت الحاضر تصانيف عالمية موحدة عدة ، كتصنيف هيئة الأمم المتحدة ، وتصنيف مجلس التعاون الاقتصادي (الكوميكون) ، كما توجد

تصانيف خاصة ببعض الأقطار الأوروبية ، وبالإضافة إلى التصنيف الدولي ، هنالك تصنيف إقليمية ومحلية تقوم على معايير مختلفة^(٩).

صنف ابن خلدون الصناعة إلى أصناف معتمداً في ذلك على بعض الأسس، فبالاعتماد على أساس طبيعة العملية الصناعية ، فقد صنفها إلى صناعات بسيطة ، وصناعات مركبة ، وأن الصناعات البسيطة تتمثل بالمنتجات الصناعية الضرورية للإنسان كالغذاء . أما الصناعات المركبة فتتمثل بالمنتجات الصناعية الكمالية . كما لاحظنا ابن خلدون أن الصناعات البسيطة تمارس حصراً في المناطق الأقل تطوراً وتكون أسرع تعلماً من الصناعات المركبة التي تمارس في المناطق المتطورة . فيقول : ((أن الصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون للكماليات والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولاً . ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقاً في التعليم ويكون تعليمه ناقصاً ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدرج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة . وإنما يحصل في أزمان وأجيال .))^(١٠).

كما اعتمد ابن خلدون على أساس طبيعة المنتجات الصناعية ، فصنفها إلى صناعات ذات منتجات مادية تختص بأمور معاش الإنسان ، وصناعات ذات منتجات معنوية تهتم بالأمور الفكرية للإنسان . فيقول : ((تنقسم الصنائع إلى ما يختص بأمور المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحداة وأمثالها ومن الثاني الوراقة وهي معانسة الكتب بالاستنساخ والتجليد والغناء والشعر وتعلم العلم))^(١١).

وفيما يأتي ذكر لبعض تصنيفات الصناعة :

١ - صنف أخوان الصفا الصنائع بحسب موضوعها ، فجعلوها نوعين ، الصنائع الروحانية وتشمل المهن الفكرية ، والصنائع الجسمانية وتشمل

الحرف اليدوية ، كما صنّفوا الحرف اليدوية إلى صنائع يكون موضوعها بسيطاً : كالماء (صناعة السفائين والملاحين والسباحين) والتراب (صناعة حفاري الآبار والأنهار) والنار (مثل النفاطين والوقادين) والهواء (مثل الزمارين والبواقين) والماء والتراب معاً (مثل الفخارين) . أما النوع الآخر من الصناعات اليدوية فهي المركبة وهي ثلاثة أنواع ، الأجسام المعدنية (صناعة الصفارين والحدادين والصوانين) والنباتات (صناعة الخواصين والحصرين) ومن يعمل (بصنع الكاغد والعصارين والرقاقين) والحيوان (صناعة الصيادين والبيطرة والدباغين والطباخين) وأجسام الناس (المزين والطبيب والمعلم)^(١٢) . كما صنّفوا الصنائع الأساسية الضرورية للمجتمع ، وأصناف أخوان الصفا صنائع الترف والزينة (صناعة الديباج والحريير والعمود) إلى تصانيفهم . ولأخوان الصفا تصنيف آخر بحسب حاجتها إلى الحركة أي حاجة الصناعة إلى الحركة لاسيما الحركة العضلية (جسد الإنسان) فصنّفوا المهن بحسب استخدام عضو أو أكثر منه في صناعة أو أخرى ، مثل الخطابة التي تحتاج إلى اللسان ، والنواح الذي يحتاج إلى اليد واللسان والسباحة والرقص الذي يستخدم الجسد بأجمعه^(١٣).

٢ - أما الغزالي (١٠٥٨-١١١١م) فقد صنف الصنائع بحسب ضرورتها إلى صناعات ضرورية وأخرى أوجدها النعيم والترف وهي ما تسميه (بالكماليات) ، كما صنفها من ناحية النظرة الاجتماعية إلى ، صناعات مستحبة (كالنجارة والخياطة) وأخرى غير مستحبة (كصناعة الحاكة والقطنين)^(١٤).

٣ - أما الدمشقي (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي ٧٠٠-٧٤٩هـ / ١٣٠٠-١٣٤٨م) فقد صنف الصناعة بحسب احتياجها إلى الفكر والحركة ، فهناك صنائع تحتاج إلى الفكر (كالهندسة والنمو) وصناعة عملية تحتاج إلى الحركة (كالفلحة والحياكة) وصنائع حركية

تحتاج إلى الفكر والحركة معاً (الطب والكتابة) من خلال ما تقدم نلاحظ أن ابن خلدون في تصنيفه للصناعة يتفق مع الغزالي في تقسيمهم الصنائع بحسب ضرورتها إلى صناعات ضرورية في كل مجتمع حتى ولو كان بدائياً (كالنجارة والحداة والخياطة والحياكة) وصناعات كمالية أوجدها النعيم والترف (كالدباغة والصياغة والرقص والغناء وترويض الحيوانات) .

هذا ما قاله ابن خلدون والعرب في تصنيف الصناعة . أما حديثاً فأن أصناف الصناعة يصعب حصرها وتمتد من أبسط الأشياء صنفاً إلى أكثر تعقيداً ، كما أن الأسس المعتمدة في التصنيف تتباين من دولة لأخرى ضمن الأطار الإقليمي ، عليه ظهرت العديد من التصنيفات كل يعتمد مجموعة من الأسس تكاد تتطابق مع التصنيفات الأخرى أو قد تمتلك بعض الشيء رغم اختلاف الأسس المعتمدة ، والباحثون في مجال الجغرافية الصناعية بصورة عامة يصنفون الصناعة أصنافاً حسب وجهات أنظارهم ، فمنهم من يصنفها على أساس الطبيعة العامة للعمليات الصناعية ، ومنهم يعتمد الخصائص العامة للمواد الأولية أو المنتجات ، والقسم الآخر يؤكد في تصنيفه التوجه الجغرافي . من خلال ما تقدم يتضح بأن ابن خلدون في تصنيفه للصناعة قد اعتمد أسس أصبحت الأساس في التصنيف الحديثة وأن اختلفت بعض الشيء بفعل فارق الزمن والتطور الحديث للصناعة ، فتأكده جانب المنفعة والحاجة الضرورية للإنسان من المنتجات الصناعية مؤشر واضح على المنتجات الضرورية وهذا أمر طبيعي في مرحلة تاريخية لم تصل الصناعة فيه أو أذواق الناس وحاجاتهم إلى ما وصلت إليه حديثاً ، فالصناعة وتعدد أصنافها هي انعكاس لواقع مكاني وزماني .

٣ - العمق الحضاري ودوره في نشوء وتطور الصناعة :

مرت الصناعة بمراحل مختلفة ، ففي القرون الوسطى كانت منزلية ، إذ تعمل كل أسرة على إنتاج ما تحتاج إليه من مصنوعات بنفسها ، وربما ظهر بعض التخصص بين تلك الأسر - وأن سياسة الاكتفاء الذاتي كانت هي السائدة ،

أي أن كل مجتمع ينتج ما يحتاجه من صناعات - ثم أن الصناعات لم تكن موزعة كما هي في الوقت الحاضر ، إذ لم تكن الصناعات الضخمة معروفة ، وهذا يعود إلى عدم توفر الوقود لتوليد القوى المحركة ، إذ أن ذلك لم يتوافر إلا بعد اكتشاف قوة البخار في القرن الثامن عشر . فكانت القوى المحركة في القرون الماضية مستمدة من قوة الإنسان الجسمية أو قوة المياه . وقد تطورت الصناعة خلال قرن واحد في العصر الحديث أكثر من تطورها في السابق^(١٦).

أن لأبن خلدون أفكاره في هذا المجال ، إذ أكد أن نشوء وتطور الصناعة يتم من خلال مراحل متعاقبة ويرتبط بدرجة كبيرة بمتغيرات أساسية خلال تلك المراحل ، أستطاع أن يحددها بثلاثة ، الأول ، المستوى الحضاري والمدنية للمجتمع ، والثاني ، عراقة المجتمع وأمداده التاريخي ، أما الثالث ، فهو حجم البلد أو الإقليم . فيقول : ((خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لاسيما في الأمور الصناعية فلا بد إذن من زمان ولهذا نجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط))^(١٧) وقد أشار أبن خلدون إلى المراحل التي يمر بها المجتمع التي تحدد بدورها تطور الصناعة وهي :

١ - المرحلة الأولى ، وهي المرحلة الأكثفاء الذاتي حيث تكون الصناعة محدودة التنوع ومعظم المنتجات من النوع الضروري للمجتمع كالغذاء مثلاً.

٢ - المرحلة الثانية ، وهي مرحلة انتقالية من المرحلة الأولى إلى مرحلة جديدة تتميز بدرجة من التمدن ، وتوفر فرص العمل ، وتنوع الحاجات ، وظهور حاجات جديدة ، كل هذه المتغيرات تنقل المجتمع إلى مرحلة ثالثة في سلم تطور الصناعة .

٣ - المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة الانتقال إلى الصناعات الكمالية أو صناعة الترف . عليه أن أبن خلدون قد أكد في تطور الصناعة درجة الرقي الحضاري ومستوى التطور العمراني للبلدان ، فيقول : ((أن الصنائع تكمل

بكمال العمران الحضري وكثرته والسبب في ذلك أن الناس ما لم يستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ إلى الكماليات من المعاش))^(١٨).

أما بخصوص التطور القوتي للصناعة فقد أشار ابن خلدون إلى أن هنالك علاقة وثيقة بين نوع الإنتاج وحجم العمران الذي يعكس مستوى المدينة وحجم الاستهلاك ، عليه فقد ركز ابن خلدون على المدينة في إمكانية تطور الصناعة ، فيقول : ((وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واستجارة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة وأما العمران اليدوي أو العضلي فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروري وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملة التأنق في البضائع واستجاداتها تكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعوا عوائد الترف وأحواله))^(١٩).

نستنتج فضلاً عن ما تقدم ذكره أن ابن خلدون أشار إلى المستوى المعاشي وأمكانية الأنفاق كمعيار في تحديد تطور الصناعة كما ونوعاً بين العمران المدني والعمران اليدوي حسب تعبيره .

ولم يقتصر ابن خلدون على واقع الحضارة الحالي للبلد في تطور الصناعة، وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ أعطى للامتداد الحضاري في التاريخ دوراً مهماً في تطور الصناعة ورسوخها حيث عدّ ذلك الامتداد بمثابة القاعدة الصلبة والأرض الخصبة لما تصل إليه الصناعة من تطور في المراحل اللاحقة، ولأهمية هذا الجانب فقد أفرد ابن خلدون فصلاً خاصاً في مقدمته يذكر فيه "في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمده والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد العمران والأوان والعوائد أنما ترسخ بكثرة

التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال وإذا استحكمت الصبغة عسر نزاعها^(٢٠).

ويستمر ابن خلدون في أفكاره ، فيشير إلى مسألة على قدر من الأهمية ، إذ أعطى للصناعة دوراً مهماً عندما جعلها شاهداً من الشواهد الحضارية تروي للأجيال عبر التاريخ عظمة الحضارة والبُعد (العمق) الحضاري الذي بلغته البلدان من مراحل التطور والأزدهار خاصة إذا أصاب تلك البلدان تدهور حضاري لسبب ما ، فيقول : ((ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استجرت في الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت منها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغ في الوفرة والكثرة وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكرارها))^(٢١).

ولم يكتف ابن خلدون بدور الصناعة على الصعيد المعاشي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي ، بل استنتج بأن للصناعة دوراً آخر ومهماً في كيان الدولة واستقرارها السياسي وبالتالي في قوتها بين الدول ، فيقول : ((أعلم أن الدولة تنتقل في أوضاع مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائلون بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الآخر))^(٢٢) . وهنا يميز ابن خلدون أطوار متعاقبة للدولة الذي يهمنها الطور الذي تتجه فيه الدولة إلى الشؤون الداخلية ومنها انصناعة فقد حدده بالطور الثالث وهو طور انقراض والأعمال تشييد المباني والمصانع والهياكل . هذا ما قاله ابن خلدون عن تطور الصناعة في القرن الرابع عشر . أما حديثاً ومنذ القرن الثامن عشر أي بعد نحو أربعة قرون فإن الصناعة الحديثة ولدت في أوروبا الغربية نتيجة التقاء العقلانية الحديثة أداة تقدم الفكر العلمي والاكتشافات التقنية التي هي من نتائجها ، وبمساعدة الأوضاع المالية لتطبيق تلك الاكتشافات على الإنتاج ، والأوضاع التجارية فقد ساعدت على تركيز رؤوس الأموال في إنكلترا على وجه الخصوص وفي مناطق ثانوية على نطاق قارة أوروبا

كفرنسا وألمانيا الغربية وهولندا وسويسرا والنمسا ، وكانت هذه المناطق تمثل مختلف مراكز تطبيق التقنيات الجديدة^(٢٣).

ومن مظاهر تطور الصناعة الحديثة ، إحلال القوى الميكانيكية محل القوى العضلية ، وتحرر بعض الصناعات من الارتباط بمواطن خاماتها ، الإنتاج على نطاق واسع ، ظهور طبقة عمالية وثيقة بالنقابات . أن الصناعة الحديثة تمثل في هذا العصر قاعدة للتقدم السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، عليه أصبح التصنع مسألة مهمة عند الكثير من الأقطار سيما المتخلفة منها لما للتصنيع من دور مباشر في رفع مستوى معيشة الشعب فضلاً عن تحرره من التبعية - من خلال المقارنة بين أفكار أين خلدون والأفكار الحديثة بخصوص تطور الصناعة ، نلاحظ بأن هنالك فارقاً في الناحية التنظيمية والفنية متمثلاً بطبيعة التطور والتقنيات والإمكانات وأساليب الإنتاج والتوزيع والسياسات التنظيمية وغيرها من المتغيرات. وهذا أمر طبيعي يرجع إلى فارق الزمن والتطورات اللاحقة ، وعلى الرغم من ذلك فإن تعمق الحضاري وعمق الاقتدار في التاريخ كان أساساً جوهرياً لتطور الصناعة إذ يشكلان نقاط إنطلاق مستمرة وجديدة في تطور الصناعة وهذا ما أكد عليه أين خلدون ، فضلاً على تأكيده للأثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية على الصناعة وهذا ما توليه التطورات الحديثة للصناعة عناية خاصة . فضلاً عن ذلك فقد أشار أين خلدون إلى درجة العمران وحجم السكان في تطور الصناعة وتركزها وهذا أساس في الوقت الحاضر لتطور الصناعة وتركزها في المناطق الأكثر حضرية .

٤ - نمو الصناعة :

أن لأين خلدون رأياً في نمو الصناعة يتضح من خلال تأكيده آلية السوق ودوره في نمو الصناعة كماً ونوعاً ، وأن هذا يتأثر بحجم السوق الذي يحدد بدوره طبيعة السوق وما يترتب عليه من إمكانية في تصريف الإنتاج وإنعكاسات ذلك على إمكانية التوسع في الإنتاج وتحسين نوعيته ، وفي هذا المجال يشير أين

خلدون إلى السلاقة بين العوائد الاقتصادية المتمثلة بالأرباح وتحسين النوعية ، وعليه سوف يترتب على ذلك توسع في حجم الاستثمارات في المراحل اللاحقة ، فيقول : ((أن الصناعات إنما تستجد وتكثر إذ كثر طالبيها والسبب في ذلك ظاهر وهو إن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مجاًناً لأنه كسبه ومنه معاشه إذ لا فائدة في جميع عمره في شيء سواه فلا يصرفه إلا فيما قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع ... وإن كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليه النفاق كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي تتفق سوقها وتجلب للبيع فيجتهد الناس في المدينة لتعليم الصناعة ليكون منها معاشهم))^(٢٤).

كما أشار أبين خلدون إلى دور الدولة في نمو الصناعة ، فهي أكثر قدرة على دعم الصناعات من الأفراد ، حيث يتجنى دورها في كونها أكبر سوق لتصريف البضائع سيما الضرورية منها للسكان من ناحية ، وسعيها في تشجيع تعليم الصناعات التي تحددها بحسب أهميتها للسكان ، فيقول : ((أن الصناعات وإجابتها إنما تطلبها الدولة فهي التي تتفق سوقها وتوجه الطلبات وما لم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها لأن الدولة هي بالسوق الأعظم وفيها نفاق كل شيء))^(٢٥) . وقد ذكر أبين خلدون أن بعض الصناعات تندهور وتضمحل إذا قل الطلب عليها فلا يمارسونها أو يتعلمونها ، فيقول : ((وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد إلى تعلمها فأحتضت بالترك وفقدت للأهمال))^(٢٦) .

وحديثاً نمو الصناعة يعني الزيادة الكمية في عدد الوحدات المنتجة مع إمكانية المنافسة في الأسواق والزيادة في القيمة المضافة ، كما يعني الزيادة الكمية في المنتج نسبة إلى وحدة المستخدم ، ونمو الصناعة يحدث أما بصورة تلقائية بتأثير آلية السوق ، كما يحدث نتيجة لتدخل الدولة وهو ما يسمى بالنمو المخطط ، ونمو الصناعة تتباين معدلاته مكانياً وزمانياً ، كما يتأثر بطبيعة حجم الطلب وجودة الصناعة ، والاستثمارات المتاحة ، والمقومات الطبيعية والبشرية^(٢٧) من

مقارنة أفكار أبين خلدون بالمفاهيم الحديثة في نمو الصناعة ، تستطيع القول أن أبين خلدون قد أشار إلى المقومات الأساسية لنمو الصناعة والمتمثلة بجمع الطلب بوصفه العمل الموجه لنمو الصناعة ، ودور الدولة ، وأختلاف الأنظمة الاقتصادية والسياسية وحجم السكان وجودة الإنتاج والأرباح والاستثمارات والتي أصبحت حديثاً من الأسس الموجه لنمو الصناعة ، ورغم عدم ذكر أبين خلدون لبعض جوانب نمو الصناعة فإن هذا لا يعدّ نقص في أفكاره بل يعود إلى طبيعة الصناعة وآلية نموها آنذاك.

٥ - آلية العرض والطلب ودورها في تحديد سوق الصناعة :

أشار أبين خلدون إلى عامل السوق والأسعار ودورها في تصريف المنتجات الصناعية ، إذ ذكر بأن سعة وحجم السوق لأية صناعة يتحدد من خلال العلاقة بين العرض والطلب . وقد عرّف أبين خلدون السوق بأنها أماكن لتجمع البضائع والسلع الضرورية منها والكمالية ، فيقول : ((أعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فمنها الضروري وهي الأقوات ومنها الحاجي والكمالي مثل الآدم والفواكه والملابس والماعون وسائر الصنائع))^(٢٨) . وأن تفصيل أبين خلدون لنوع المنتجات من كونها ضرورية وكمالية ليحدد طبيعة العلاقة بين العرض والطلب وانعكاسها على سعرها . كما أشار أبين خلدون إلى مرونة الطلب على السلع حتى ولو كانت عالية فإن سعرها ينخفض سيما بالنسبة للضروري منها في حين ترتفع أسعار السلع الكمالية فيقول : ((إذا استجر المعد وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت وغلّت أسعار الكمالي (...))^(٢٩).

أما بالنسبة لمسعار السلع الكمالية فقد لاحظ أن خلدون أنها مرتبطة بعامل الطلب وارتفاعها يتوقف على زيادة الطلب عليها أن هذا الاستنتاج أوعّزه أبين خلدون إلى الأمكانية المادية التي يتمتع بعض الناس ومقدرتهم على الإنفاق فضلاً عن توافر الدوافع والرغبة للشراء من ناحية ، ومحدودية تلك السلع من ناحية أخرى . ولم يقتصر أبين خلدون في تحليله للأسعار وتغيراتها على مسألة العرض

والطلب وإنما وجد بملاحظته الدقيقة أن هنالك عوامل تؤدي دوراً في التأثير على الأسعار والتي حددها ، بقيمة المردودات الاقتصادية للصنائع والأعمال في المدينة وكيف أن ارتفاعها يؤثر في الأسعار . فيقول : ((وأما الصنائع والأعمال أيضاً في الأمصار الموفورة العمران فيسبب الغلاء ... وكثرة حاجاتهم إلى اتهمان غيرهم وإلى استعمال الصنائع في مهنتهم فيبدلون ذلك لأهل الأعمال أكثر قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار لها فيعتز العمل والصناع وأهل الحرف وتقلوا أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك))^(٣٠) من هذا يلاحظ أن ابن خلدون قد أشار إلى تكاليف الإنتاج التي من ضمنها تكاليف العمل وأن لها أثراً في تحديد الأسعار وانعكاساتها على سعة السوق ، كما حدد ابن خلدون عوامل أخرى غير مباشرة في تحديد الأسعار كالضرائب مما تضيف تكاليف أخرى إلى تكاليف الإنتاج.

وفي إشارة لابن خلدون إلى قدرة السوق وسعتها وتأثيرها في الأسعار ومن ثم على حجم الإنتاج وجد أن المدن الصغيرة التي تتميز بقلّة سكانها وذات الإنتاج المحدود تكون أسعار المنتجات الضرورية فيها مرتفعة أما المنتجات الكمالية فتخفض أسعارها نتيجة لأنخفاض القدرة على الإنفاق وعدم الاهتمام بها وفي الحاليتين تضيق أسواق وتتمدد ، فيقول : ((وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلّة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت .. بقلّة السكان وضعف الأحوال فلا تتفق لديهم سوقيه فيختص بالرخيص في سعره))^(٣١).

وقد أشار ابن خلدون إلى كلفة النقل وأثرها في تحديد الأسعار .

هذا ما قاله ابن خلدون عن العرض والطلب ودورهما في تحديد السوق لصناعة ما .

أما حديثاً فقد ظهرت آراء وأفكار عديدة أخذت مكانها في الفكر الاقتصادي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . ومن المساهمين في تحليل عامل السوق وفق المنطوق العلمي كل من :

١ - هوتلتك ، ركز على عامل المنافسة وأثره في تحديد سعر الناتج النهائي للمستهلك ومن ثم تحديد سوق النشاط الصناعي ، إذ أكد أن العامل الحاسم في آلية السوق هو المستهلك وهو الذي يتحمل كلفة النقل في الحصول على الإنتاج .

٢ - بالاند ، أكد على أن سعة السوق تؤثر في مقدار الأرباح وكذلك المنافسة .

٣ - أوجر هوفر ، ذكر كلفة النقل وتكاليف الإنتاج ، كذلك أدخل الضرائب الحكومية واعتبرها جزء من تكاليف الإنتاج .

٤ - أولن ، أشار إلى أن تكاليف النقل والتجارة تؤثر كثيراً على التجارة والسوق .

٥ - سمثرز ، أهتم بتحليل الطلب والسعر .

من خلال مقارنة أفكار ابن خلدون بالأفكار الحديثة بخصوص بسوق الصناعة، يلاحظ أن ابن خلدون قد ذكر معظم المفاهيم الأساسية التي يتحدد بموجبها دور السوق التي يمكن عدها أساساً للمفاهيم الحديثة مع فارق الزمن وتطور تلك المفاهيم والأفكار . والجدير بالذكر أن ابن خلدون في تحليله لمنطقة السوق كان ضمن مرحلة زمنية لم يكن فيها النشاط الصناعي واضحاً مثلما هو عليه في الوقت الحاضر ، ومع ذلك ذكر ابن خلدون المحددات الأساسية كتغيير الطلب ، وتقلب الأسعار ، والمنافسة والأرباح وتكاليف الإنتاج وحجم الأرباح والضرائب وكلفة العمل والنقل والتي هي نفسها تتناولها المفاهيم الحديثة مع الفارق في التحليل والاستنتاجات عليه فأن ابن خلدون قد سبق المفكرين الاقتصاديين والمهتمين بالصناعة في هذا المجال .

الخلاصة :

يُعدّ أبْنُ خلدون من أشهر مفكرين العرب وفلاسفتهم في القرن الرابع عشر ميلادي ، أهتم بدراسة علم الاجتماع والتاريخ ، إلّا أنه لم يشتهر كجغرافي رغم أن مقدماته غنية بالأفكار الجغرافية . وفي مجال الجغرافية الصناعية يمكن أن نتلمس أفكاره في جوانب كثيرة ، كمفهوم الصناعة ، وأصنافها ، ونشوتها، ونموها وتطورها ، وسوقها .

أكد أبْنُ خلدون أن الصناعة موهبة ، وأعطى للعلم دوراً مؤثراً في نشوءها وتطورها عبر المراحل التاريخية مستفيدة من تراكم الخبرات وصقل الموهبة. ولكي تستمر الصناعة وتتجج ذكر بأن توفر المقومات الأساسية أمراً ضرورياً لذلك ، كما أعطى العمل قيمة عليا في نمو وتطور الصناعة ، كما ذكر أن المهارة ترتبط بطبيعة الصناعة وطبيعة المتعلم لها . وفي أشارته إلى دور الحضارة فقد ذكر بأن للعمق الحضاري والامتداد التاريخي أساس في تطور الصناعة ، مشيراً إلى أهميتها في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وقد عدها مقوم من مقومات البلد أو الدولة . وفي تصنيفه للصناعة فقد أعتمد أسس لا تزال تعتمد في الوقت الحاضر ، حيث أكد على طبيعة الصناعة وطبيعة العملية الإنتاجية . فصنف الصناعة إلى بسيطة ومركبة وضرورية وكمالية . وقد أشار أبْنُ خلدون إلى دور الدولة في نمو الصناعة وهذا ما تعتمد عليه حديثاً الصناعة في نموها . وفي إطار تحديد سوق الصناعة فقد ذكر متغيرات عديدة ، كآلية العرض والطلب وتغير الأسعار والمنافسة والأرباح والضرائب وكلفة النقل وكلفة العمل .

من خلال تحقيق أفكار أبْنِ خلدون نجد بأن الكثير منها ملئت الأساس للعديد من المفاهيم الحديثة مع فارق الزمن . وعلى الرغم من أن أبْنِ خلدون لم يتطرق إلى جوانب أخرى كالموقع الصناعي إلّا أنه أشار إليه من خلال ملاحظته، وهذا أمر طبيعي لأن الصناعة تنمو وتتطور وتصبح أكثر وضوحاً وتعقيداً بمرور الزمن عليه فإن أبْنِ خلدون أشار إلى ماهية الصناعة في مرحلة زمنية لم تصل فيها إلى ما وصلت عليه حديثاً .

الهوامش :

- ١ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، عبد الرحمن ابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ) ج ١ مصر ، القاهرة ، المكتبة التجارية ص ٣٩٩-٤٠٠.
- ٢ - المصدر نفسه ، ص ٤٠٠ .
- ٣ - المصدر نفسه ، ص ٣٨١ .
- ٤ - المصدر نفسه ، ص ٤٠٦ .
- ٥ - المصدر نفسه ، ص ٤١١ .
- ٦ - د. أحمد حبيب رسول ، مبادئ الجغرافية الصناعية ، الجزء الأول ، مطبعة دار السلام ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٨-٩ .
- ٧ - د. إبراهيم شريف ، جغرافية الصناعة ، دار الرسالة للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ٤.
- ٨ - المنظمة العربية للتنمية الصناعية ، مؤتمر التنمية الصناعية السادس للدول العربية ، دمشق ، للفترة ٢٠-٢٥ ت ١ ، ١٩٨٤ ، ص ١٧-١٨ .
- ٩ - د. إبراهيم شريف ، د. أحمد حبيب رسول ، السيد نعمان دهش ، جغرافية الصناعة ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر في الموصل ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ١٣٤.
- ١٠ - ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص ٤٠٠ .
- ١١ - المصدر نفسه ، ص ٤٠٠ .
- ١٢ - أخوان الصفا ، رسائل أخوان الصفا وخلاف العرفاء ، الجزء الأول ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٢٨٠-٢٨١.

- ١٣ - صباح إبراهيم سعيد الشخيلي ، الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها، "بحث في التنظيمات الحرفية في المجتمع العربي الإسلامي" دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ٢٨-٢٩ .
- ١٤ - المصدر نفسه ، ص ٢٩ .
- ١٥ - المصدر نفسه ، ص ٢٩ .
- ١٦ - د. خطاب صكار العاني ، الجغرافية الاقتصادية ، الطبعة الثانية ، مطبعة دار التضامن ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٥٢٦ .
- ١٧ - ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص ٤٠٠ .
- ١٨ - المصدر نفسه ، ص ٤٠٠ .
- ١٩ - المصدر نفسه ، ص ٤٠١ .
- ٢٠ - المصدر نفسه ، ص ٤٠١ .
- ٢١ - المصدر نفسه ، ص ٤٠١-٤٠٢ .
- ٢٢ - مقدمة ابن خلدون ، طبعة مكتبة المثنى ، بغداد ، ص ١٧٥-١٧٦ .
- ٢٣ - بيار جورج ، جغرافية العالم الصناعية ، ترجمة بهيج شعبان ، دار الطباعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٥-٨ .
- ٢٤ - ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص ٤٠٣ .
- ٢٥ - المصدر نفسه ، ص ٤٠٣ .
- ٢٦ - المصدر نفسه ، ص ٤٠٣ .
- ٢٧ - أ.د. محمد أزهر السماك ، د. عباس علي التميمي ، أسس جغرافية الصناعة وتطبيقاتها ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة الموصل ، الموصل ، ١٩٨٧ ، ص ٢٣ .

ب. محمد العمادي ، التنمية الاقتصادية والتخطيط ، الطبعة العلمية، ط١، دمشق ، ١٩٧٦ ، ص٢٥٣ .

٢٨ - أبن خلدون ، مصدر سابق ، ص٣٦٢-٣٦٣ .

٢٩ - المصدر نفسه ، ص٣٦٣ .

٣٠ - المصدر نفسه ، ص٣٦٣ .

٣١ - المصدر نفسه ، ص٣٦٣-٣٦٤ ،

٣٢ - أ.د. حسن محمود الحديثي ، "تخطيط المواقع الصناعية" مجلة النفط والتنمية، العدد الثاني ، آذار ، نيسان ، دار الثورة للطباعة والنشر ، بغداد، ١٩٨٧ ، ص٩، ١٤ .

David M, Smith "Industrial location , An Economic Geographical analysis , U.S.A. , John Wiely and Sons, Inc., 1981 , P. 75 .

ج. John. Glasson, "An Introduction to regional planning" , London, Hutchinson Co., Published, Ltd., 1978 , P.109.

